الجامعات التي تعنى بالدين لا تكاد تظهر بالنسبة إلى الجامعات التي تعمق العلم بالمحسوس .

● **المبحث الثاني : طبيعة الفقه عند الأقلية**

والآية التي تحصر الفقه في الأقلية هي قوله تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الفتح : ١٥] وتكشف عن جانب آخر من المحدودية في العلم البشري وهو الفقه، والفرق بين العلم بمعناه الواسع والفقه، فرق بين النظري والعملي، ولذلك ذهب الغزالي إلى أن الفقه مرتبط بسياسة الملك فقال : « فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا »[١]. ولذلك كان ابن القيم يؤكد على ضرورة معرفة « مكر الناس وخداعهم وحيلهم »[٢].

ولكن كون الفقه يُعنى بالجانب التطبيقي لا يعني أن منهجه حسي تجريبي صرف، لأن طريقة تعامل الفقيه مع موضوعه تقوم على الربط بين النقل والمعاينة، فمنهجه مرهون باستخدام السمع والبصر، أما الأول فلكي يعطيه الأحكام الشرعية وأما الثاني فلكي يعرف متى ينزل على الواقعة حكما دون حكم، وعلى هذا استدرك الغزالي المسألة بقوله: « إن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة والمنجية في الآخرة، والمذموم يصدر عن المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب »[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٣٠

(٢) ابن القيم : أعلام الموقعين : ٤ / ١٩٩

(٣) نفسه ١ / ٣٤

وما دام الفقه «علما شرعيا إذ هو مستفاد من النبوة» [1] من جهة، ويتطلب المعاينة الدقيقة والفهم العميق للوقائع من جهة ثانية، فإن التوصل إليه ليس أمرا سهلا، وهذا ما جعل علماءه الحقيقيين قليلين جدا.

ومن الواضح أن آية الفتح السابقة قد كانت تعقيبا على موضوع فقهي يتمثل في التنازع حول مسائل الاستحقاق المالي الناجم عن الجهاد، ومن ثم فقد نفى النص الفقه على الأكثرية ليثبته للأقلية، فقال: ﴿ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الفتح : ١٥].

قال القرطبي : «يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا، وقيل لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلا» [2] وجاء في تفسير الجلالين : «بل كانوا لا يفقهون من الدين إلا قليلا منهم» [3]، وقال ابن كثير : «أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم» [4].

وقال قطب : «قد أمر الله نبيه – ﷺ – أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله وأخبر نبيه – ﷺ – أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج «بل تحسدوننا» فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة، ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره، فجزاء المخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله، وأن يختصوا بالغنم حين يقدره الله جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد» [5].

---

(١) نفسه : ١ / ٣٤ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٦ / ٢٧١ .
(٣) تفسير الجلالين : ٦٧٩
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٩٠ .
(٥) في ظلال القرآن : ٢٦ / ٣٣٢٣ .

إن آراء المفسرين – كما ترى– مختلفة بشأن المقصود بالمستثنى « قليلا » فمنهم من فسر النص على أن المقصود بالقلة هو قلة فقه المخلفين من الأعراب، فهم « لا يفهمون إلا فهما قليلا، وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين كقوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ وغرض الإضراب الثاني هو العدول عن وصف المؤمنين بالحسد إلى وصف المخلفين بما هو أعظم منه وهو الجهل وقلة الفقه [١]، لأن الإضراب الأول « نسبة إلى جهل في شيء مخصوص وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق وقلة فهم على الاسترسال »[٢].

ومنهم من فسر المستثنى « إلا قليلا » بأن الأقلية منهم فقط هي التي تدرك مقاصد الشرع وتفقه أحكامه [٣] ، ويحصرهم البغوي في « من صدق الله والرسول »[٤] وهؤلاء هم العلماء الفقهاء العقلاء لأن « حب الدنيا ليس من شيمة العالم العاقل »[٥] .

والواقع أن الأمرين متكاملين، لأن قلة الفقه من قلة الفقهاء والعكس صحيح، وعليه فإن النتيجة التي نتوصل إليها هي تنصيص الآية على أن الفقهاء حقا يمثلون الأقلية القليلة جدا، وهذا يطرح في الواقع تساؤلات عدة مثل: لماذا قل الفقهاء؟ وماذا يترتب عن ذلك؟ وهل يمكن استدراك هذا النقص؟ والقرآن نفسه يطرح هذا السؤال : ﴿ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً** ﴾

[النساء : ٧٨]

---

(١) الكشاف : ٣/ ٥٤٥ .

(٢) ناصر الدين بن المنير : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : على هامش الكشاف ٣/ ٥٤٦ – دار المعرفة ص : ٥٤٦ .

(٣) الجلالين: السابق ، السمرقندي : بحر العلوم ٣/ ٢٥٥، سليمان العجيلي الفتوحات الالهية ٧/ ٢١٧ .

(٤) الحسين بن مسعود البغوي : تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ٤/ ١٧٤ .

(٥) محمد بن عمر نووي الجاوي: تفسير : الكشف عن معنى القرآن المجيد ٢/ ٤٢٧ .

النصوص التي استخدمت لفظ الفقه بصيغ مختلفة في القرآن ثمانية عشر نصا، بعضها يشير إلى دور انفتاح الذهن وحضور القلب في حصول الفقه، كما في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ انصرَفُوا صرفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وبعضها يشير لدور العقيدة كما في قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** ﴾ [المنافقون: ٣]، وبعضها يشير لدور الإعراض عن العلم أصلا تكبرا وجهلا بقيمته، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ** ﴾ [الكهف: ٥٧].

فهناك إذن أسباب واضحة في مسألة حدوث الفقه أو انعدامه، يمكن حصرها في: الإرادة، والعقيدة،والاستعداد التربوي والنفسي.

وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن ماهية الأدوات التي تميز منهج الأقلية حتى يكونوا أفقه من غيرهم؟ وهذا يدعونا للحديث عن استخدام الأقلية لوسائل المعرفة.

● المبحث الثالث: طريقة استخدام الأقلية لوسائل المعرفة

وسائل المعرفة وأدواته في المنهج الإسلامي ثلاث بها يتجاوز النظرة السطحية التي لا تعرف من أمور الحياة الدنيا إلا ظاهرها، أما الباطن، وأما الآخرة فهما مما يحتاج لأدوات أقوى هي العقل والوحي، وقد رأينا كيف ينتقد القرآن الكفار بسبب تعطيل وسائل المعرفة بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾[الأعراف: ١٧٩].

وبمفهوم المخالفة فإن الأقلية هي التي تستخدم هذه الأدوات استخداما صحيحا لما فيه من التكامل بين الحس والعقل والنقل، وبهذا وحده يتحقق الرسوخ في العلم وهو الذي بين القرآن قيمته في الحياة البشرية لعاجلها وآجلها،